وفيما هم يتبعون كانوا يخافون

"*وكانوا في الطريق صاعدين إلى أورشليم ويتقدمهم يسوع. وكانوا يتحيرون وفيما هم يتبعون كانوا يخافون*" (مر 32:10) هكذا وصف القديس مرقس وحده ببراعة حال التلاميذ بينما كانوا يسيرون وراء يسوع في طريقه إلى الآلام والموت حيث شعروا بكل من الحيرة والخوف. في الواقع هذه هي الخبرة الوجدانية المعتادة التي تتولد لدى الإنسان عندما يواجه الألم، والموت الذي هو ذروة الألم بالنسبة له.

معضلة الألم شغلت عقول الكثيرين منذ فجر البشرية حيث كان من الصعب على الإنسان أن يصدق أن الله كلي الحب والرحمة يخلق الألم. هذه المعضلة هي عينها التي حيرت عقل أيوب الذي خاض آلاماً كثيرة بدنية ومعنوية وإذ لم يستطع أن يجد معنى لآلامه إزداد ألماً على ألم.

الله لم يخلق الألم ولكنه جاء كنتيجة مأساوية للخطية والسقوط: "*تكثيراً أكثر أتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولاداً*" (تك16:3)، "*بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ... بعرق وجهك تأكل خبزاً*" (تك3: 17،19). فآدم وحواء إذ دخلتهما لذة الشهوة حصدا في النهاية ألماً. من هنا صار الألم واللذة قطبان لا ينفصلان عن بعضهما البعض حيث أصبح قانوناً ثابتاً لا يتزعزع أن يعقب الألم اللذة، بل وصار نفس المصدر الذي يسبب اللذة هو نفسه الذي يسبب الألم. فالطعام مثلاً الذي هو مصدر لذة قد يصير هو نفسه مصدر ألم ومرض، ومستقبلات اللمس لدى الإنسان قد تنقل للمخ كلاً من مثيرات اللذة ومثيرات الألم. لعل هذا القانون هو ما جعل الآباء الحاذقين المستنيرين بالروح القدس يسمون الأهواء والشهوات "أوجاعاً". كما أنه ألهمهم أن يجعلوا الوصول إلى حالة "اللاهوى"، التي هي حالة التحرر من كل من اللذة والألم، هي غاية كل جهاد ونسك حيث اعتبروا تلك الحالة وحدها هي شرط الإتحاد بالله.

إن الشخص الوحيد الذي لم يخضع لهذا القانون هو السيد المسيح. إنه لكونه وحده بلا خطية لم يخضع قط للذة، وبالتالي لم يكن يتعين عليه بالمرة أن يخضع للألم كنتيجة حتمية

للذة. إلا أنه **بإرادته** إرتضى أن يجوز معصرة الألم وأن يُدعى *"رجل أوجاع ومختبر الحزن"* (إش 3:53)، وأن يصفه أشعياء قائلاً: *"لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها"* (إش4:53) فانطبق عليه بحق قول المزمور: *"حينئذ رددت الذي لم أخطفه"* (مز4:69) أي أنه خضع للألم دون أن يكون قد سبق وخضع للذة. ومن تلك الساعة لم يعد الألم مصدر خوف وحيرة، ولم يعد بلا معنى بل صار الألم مجداً لكل من يتألم لأجل بر وليس لأجل خطية: *"يسوع نراه مكللاً بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت"* (عب9:2).

لعل هذا هو السبب الذي لأجله يهتف الأب الكاهن في ختام كل ساعة من سواعي البصخة معطياً البركة للشعب قائلاً: *"يسوع المسيح إلهنا الحقيقي* ***الذي قبل الآلام بإرادته*** *وصلب على الصليب لأجلنا يباركنا بكل بركة روحية"*. نعم آمين فليباركنا بكل بركة روحية ذاك الذي قبل بإرادته الألم من دون لذة.